النيـــة

قال ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

[رواه البخاري ومسلم]

النية أساس الفلاح ، وعنوان النجاح ، إن صفت صفا العمل ، وإن حسنت قُبل ، وإن طابت طاب ، وإن ساءت النية ساء العمل ، واعتراه الخلل ، وباء بالفشل . يكون العمل قليلاً فُتَكَثِّره النية ، ويكون كثيراً فتقلله النية أو تمحقه ، «ما سبقكم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ، ولكن بشيءٍ وقر في قلبه» .

بالنية قد يصل المرُء إلى أعلى علِّيين ، وبالنّيّة قد يهوي إلى أسفلِ سافلين . من صَلحت نيتُه صَلح عملُه ، وبورك فعلُه ، وحَسُن قولُه ، وطاب سلوكُه ، قال تعالى : ﴿ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفتح : ١٨] ، ومن ساءت نيتُه فالعمل مردود ، والطريق مسدود ، والفعل مرذول ، والمستقبل مظلم، والوعيد مخيف ، والبركة ممحوقة .

من خبثت نيته خبثت نفسه، وخبث جنانه، وخبث لسانه ، وخبثت

آثاره ، وشاهت أخباره ، قال سبحانه : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُوراً** ﴾ [الإسراء : ١٨] ، ومن زكت نيته زكت نفسه ، وزكا قلبه ، وزكا لسانه ، وزكت جوارحه ، وعَظُم عطاؤه ، وشُكر سَعْيُهُ ، قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً** ﴾ [الإسراء : ١٩] .

كم من متظاهرٍ بالإحسان ، ومدّعٍ للإخلاص ، يَشُمّ الناسُ فسادَ نيته ويعرفون خُبث طويته ، فلا ينفعه ادعاؤه ، ولا يفيده خداعه . وليس الجمال في الإسلام جمالَ الظاهر ، وقوّةَ الجسم ، وحُسْنَ الصورة ، ولكنَّ الجمالَ جمالُ الباطن ، والحُسْنَ حُسْنُ النية قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [رواه مسلم] .

إذا علم الله حُسْنَ نيةِ العبد ، وطيبَ مقصده ، ونقاءَ سريرته ، زرع له القبول ، وغرس له الحب ، وسدد قوله ، وبارك عمله « ونية المؤمن خير من عمله » .

بالنية الصادقة قد يدخل الإنسان الجنة ، ولـمَّا يعمل بعمل أهلها بعد ؛ ودليل ذلك الذي قتل مائة نفس فذهب يبحث عن التوبة ومات قبل إعلانها والعمل بأركانها ، قَبِل الله توبته وإنابته وأثابه على حُسْن نيته .

والذي أسلم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقُتِل من

فوره في المعركة ، دخل الجنة بإعلان التوحيد والعزم على الإيمان . وهؤلاء لم يُمكَّنوا من العمل فلو مُكِّنوا لعملوا بعمل الإسلام ، والمرءُ يهمّ بالحسنة ولم يعملها فتُكتب له حسنة ، قال ﷺ : « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كُتب له ما نوى، وكان نومُه صدقةً عليه من ربِّه » [رواه النسائي وابن ماجه] قال الإمام أحمد لابنه: « انو الخير ولو لم تعمله تكن من أهله » .

يقول ﷺ : « إنما يُبعَث الناسُ على نيّاتهم » [رواه ابن ماجة] .

فالنية رأس الفضائل ، وأصل المسائل ، وأساس العمل ؛ والعمل بلا نيّة كالجسم بلا روح ، والعروق بلا دم ، والشجرة بلا ثمرة .

قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . . »

هذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها الدين ، وقد روي عن الشافعي قوله : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين باباً من الفقه .

وقال الإمام أحمد : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : حديث عمر رضي الله عنه « الأعمال بالنيات » ، وحديث عائشة – رضي الله عنها – : « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » [متفق عليه] ، وحديث النعمان بن بشير رضي الله عنه : « الحلال بيّن والحرام بيّن » [رواه البخاري] .

وقد جرت عادة كثير من العلماء أن يُصَدِّروا كتبهم العظيمة ومؤلفاتهم الشامخة بهذا الحديث ، ومن أولئك : الإمام البخاري في

صحيحه ، والإمام النووي في رياضه ، وهي من أنفع الكتب .

فهذا الحديث أصل عظيم من الأصول التي يقوم عليها هذا الدين وهو : بيانُ أن جميعَ الأعمالِ يتوقف صلاحها وفسادُها وقبولُها وردُّها على نية صاحبها ، فيجب على المسلم أن يستحضر النية الصالحة الصادقة الخالصة لله تعالى .

والنية في اللغة : بمعنى القصد والإرادة .

وفي الشرع : يُقْصد بها أحد معنَيَيْن :

الأول : بمعنى تمييز العبادات بعضِها من بعض ، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً ، وتمييزِ صيامِ رمضان من صيام غيره ، أو تمييز العبادات من العادات ، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التَّبَرُّد والتنظف ، ونحو ذلك .

الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل ، وهل هو لله وحده لا شريك له؟ أم لغيره؟ أم لله ولغيره ؟ ، وهذه هي النيّة المقصودة التي جاء بها كلام الرسول ﷺ وسلف الأمة ، وقد ورد ذكر هذه النية في القرآن الكريم بغير لفظ النية بألفاظ كثيرة مقاربة ، ومنها الإرادة مثل قوله تعالى ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، وقوله : ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى : ٢٠] .

ووردت بمعنى الابتغاء ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل : ٢٠] ، وقوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .. ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

وأما النية بلفظها والألفاظ التي بمعناها فقد وردت كثيراً في أحاديث الرسول ﷺ وفي كلام سلف الأمة .

قال ﷺ : « من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى » [اخرجه النسائي] ، وقال ﷺ : « من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » [رواه ابن ماجة] .

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص : « إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجرت بها ، حتى اللُّقمة تجعلها في فِيِّ امرأتك » [رواه الشيخان] ، فانظر إلى روعة هذا الحديث فهو مع بيانه لأهمية الإخلاص يهدف إلى أمرين :

الأول : الإشارة إلى روعة هذا الدين وسعة رحمة الله تعالى ، وأن الإنسان يثاب حتى في الأمور المباحة التي فيها فرحته وسروره .

الثاني : التنبيه على أهمّية مثل هذه الأمور العاطفية ؛ من التعامل الحسن مع الزوجة وكسب مودتها ، وإرضاء عاطفتها .

يقول يحيى بن أبي كثير : « تعلّموا النية فإنها أبلغ من العمل » .

وقال داود الطائي : رأيت الخير كله إنما يجمعه حُسْن النيّة .

ويقول سفيان الثوري : ما عالجت شيئاً أشدَّ عليَّ من نيّتي ، لأنها تتقلب عليَّ .

وقال بعضهم : تخليص النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد .

وقال ابن المبارك : رُبّ عملٍ صغير تُعظِّمه النيّه ، وربّ عمل كبير تصغِّره النية .

هكذا كان السلف الصالح يهتمُّون بأمر النية ووجوب الإخلاص فيها لله تعالى، ولهم في ذلك كلمات جميلة وعباراتٌ مُؤَثِّرة ، منها ما تقدم.

ومن القرآن ، قوله تعالى : ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر : ٦٥] .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]

وقوله جل وعلا : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الانعام : ١٦٢] .

فالإخلاص تصفية العمل من كل شوب ، وتنقيته من كل كَدَر .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر

والذِّكْرَ ؛ ماله؟ فقال رسول الله ﷺ «لا شيء له» ، فأعاد ثلاث مرّات يقول له رسول الله ﷺ : «لا شيء له» ، ثم قال : «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابْتُغي به وجهُهُ» [رواه النسائي] .

يقول أحد السلف : الإخلاص استواءُ أعمالِ العبد في الظاهر والباطن.

ويقول الآخر : المخلص من كتم حسناته كما يكْتُم سيئاته .

وقال الآخر : اللهم إني أستغفرك مما زَعَمْتُ فيه الإخلاص وقد خالط بشاشةَ قلبي غيرُ ذلك .

وقال مكحول : «ما أخلص عبدٌ قطّ أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه» .

وقال يُوسف بن الحسين : «أعزّ شيءٍ في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهدُ في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبتُ على لونٍ آخر» .

وقال الفضيل بن عياض : تركُ العمل لأجل الناس رياءٌ ، والعمل لأجلهم شرْك ، والإخلاص : الخلاص من هذين .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك : ٢] ، هو أخْلَصُهُ وأصوبه ، قالوا يا أبا علي : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً

صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

واحسرتاه لمن أنفق ماله ، وأتلف دراهمه ، وأنفق دنانيره ولم يُرِدْ بذلك وجه الله .

واحسرتاه لمن أقام الولائم ، وقرّب الموائد ، وأراد بها غير الله .

واحسرتاه لمن تعلم العلم ، ودرس الفقه ، وعرف المسائل ، فلم يخلص النية ، ولم يصدق القصد ، وأراد مجاراة العلماء ، أو مماراة السفهاء ، أو نيلَ عرض من أعراض الدنيا ، وحطام من حطامها ، قال ﷺ : « من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » [رواه ابو داود وابن ماجة] . عَرْف الجنة : يعني ريحها .

واحسرتاه لمن تعلم القرآن ، وترنم بكلام الرحمن ، فأراد به عرض الدنيا ، وقصد به التَّكَسُّب ، وكان مراده أن يقال له قارئ ، فهو من أول من تُسَجَّر بهم النار يوم القيامة .

واحسرتاه لمن تظاهر بالدعوة إلى الله ثم لم تكن دعوته خالصة ، ونيته صادقة ، فقصد بها غير الله ، أو أشرك معه غيره .

واحسرتاه لمن صدح بالخطب الرنانة ، والكلمات المدبّجة ، والمواعظ المختارة ، ثم لم يَحسُن قصدُه ، ولم تصفُ نيتُه .

إن فساد النية ، وخبث الطوية يهبط بالطاعات المحضة ، فيقلبها معاصيَ شائنة ، ويجعلها ذنوباً كبيرة ، فلا ينال المرء منها بعد التعب في أدائها إلا الفشل والخسران ، وبدلاً من أن يكْسِب بها الأجرَ والثواب ، يستجلب بها الويلَ والعقاب .

قال سبحانه : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون : ٥].

فلما كانت الصلاة رياءً أصبحت جريمة نكراء ، وفَعْلة شنعاء ، لأنها فقدت الإخلاص . وهكذا الزكاة إذا لحقها المنُّ ، وأُنفقتْ رئاء الناس ، وهكذا كل الأعمال إذا قصد بها غيرُ الله تتحول إلى جرائمَ نكراء ، وفعائل شنعاء !!

الله تعالى لا يقبل من العمل إلا النقيّ من الشوائب ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر : ٣] .

إن الإنسان الموظف تهبط قيمته ، وتدنو منزلته إذا أصبح كل همِّه من عمله ، وقصده من وظيفته مجرَّد الراتب أو الرتبة أو الترقيات ، ولم يكن له نية عُليا ، وهدف أسمى .

يجب أن يجعل المسلم قصدَهُ أجلّ ، وغرضَهُ أعظم ، ونيّتَه أسلم وفعله أحكم .

يقول ابن القيم – رحمه الله – : «العمل بغير إخلاص ولا اقتداءٍ كالمسافر يملأُ جرابه رملاً ينقُلُه ولا ينفعه» .

ويقول ﷺ : « ثلاث لا يُغلُّ عليهن قَلْبُ مسلم : إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإنَّ دَعْوتَهم تحيط من ورائهم » [رواه النسائي] .

ويقول ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله – عز وجل – فليطلب ثوابه من عند غير الله – عز وجل – فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » [رواه ابن ماجة والترمذي] .

وقال ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشُركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُهُ وشِركه » [رواه مسلم] .

قال ابن تيمية – رحمه الله – : إخلاص الدِّين هو الذي لا يقبل اللهُ تعالى سواه ، وهو الذي بَعث الله به الأولين والآخرين من الرُّسُل، وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمةُ أهل الإيمان ، وهذا هو خلاصةُ الدعوة النبوية ، وهو قُطْبُ القرآن الذي تدور عليه رحاه .

وأختتم بهذا الحديث الرهيب الذي تنخلع لهوله القلوب، وترتعد لعظمته الفرائص.

عن عقبة بن مسلم أن شُفَيًّا الأصبحيّ حدثه : « أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ قالوا : أبو هريرة ، قال : فدنوت منه ، حتى قعدت بين يديه ؛ وهو يُحدث الناس ، فلما سكت وخلا ، قُلت له : أسألك بحقٍّ وبحقٍّ ، لما حدَّثتني حديثاً سمعته

من رسول الله ﷺ وعقلْتَه وعَلمْتَه ، فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثنَّك حديثاً حدَّثنيه رسول الله ﷺ عَقلْتُه وعلمتُه ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً فمكثنا قليلاً ثم أفاق ، فقال : لأُحدثنَّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً أخرى ، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، فقال : أفعل ، لأُحدثنَّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً شديدةً ، ثم مال خارّاً على وجهه ، فأسندتُه طويلاً ثم أفاق ، فقال : حدثني رسول الله ﷺ :

«إن الله تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامةِ يَنزلُ إلى العباد ليقضي بينهم – وكلٌّ أمة جاثية – فأول من يُدعى به رجل جمع القرآن ، ورجلٌ قُتل في سبيل الله ، ورجل كثيرُ المال ، فيقول الله عز وجل للقارىء : ألم أُعلِّمكَ ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يا ربِّ ، قال : فما عَمِلتَ فيما علمت ؟ قال : كنتُ أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله عز وجل له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت، ويقول الله تبارك وتعالى: بل أردت أن يقال : فلان قارىء وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله عز وجل : ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا ربِّ ؛ قال : فماذا عملت فيما آتيتُك؟ قال : كنت أصل الرحم ، وأتصدّق . فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول الله له : في ماذا قُتلت؟ فيقول : أي ربِّ ! أَمَرتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتلتُ ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبتَ ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك » . ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال :

« يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أولُ خلقِ الله تُسعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامة » .

وقد بكى معاوية حينما سمع هذا الحديث حتى غشي عليه ، فلما أفاق ، قال صدق الله ورسوله ، قال الله عز وجل : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النساء : ١٣٤] » [رواه الترمذي] .

وقوله ﷺ : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، فإنه لما ذكر أن الأعمال بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيّته من خيرٍ أو شر ، ذكر بعد ذلك مثالاً من أمثال الأعمال التي صورتها واحدة ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النيات وكأنه يقول: سائر الأعمال على حذو هذا المثال .

وخلاصة الأمر أن أي عمل يعمله المرء من هجرةٍ أو سفر أو جهاد أو

صلاة أو صيام أو علمٍ أو غيرها . . يُثاب فيه على ما نوى ، ويُجزى بما قصد ، فإن قصد الله ورسوله فقد أفلح وأنجح ، وإن كان الأمر على غير ذلك فقد هَلَكَ وخسِر ، وليس له إلا ما قصد .

اللهم لك أسلمنا ، وعليك توكلنا ، وبك آمنا ، وإليك أنبنا ، وبك خاصمنا ، وإليك حاكمنا ، فاغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا ، وما أسْرَرْنا وما أعلنَّا ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت .

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

المعجزة الخالدة

لكل أُمّةٍ دستور ، ولكل شعب قانون ، ولكل قوم منهاج ، ولكل نبي معجزة . أما أمة الإسلام فدستورها القرآن ، ومنهاجها الفرقان ، ومعجزتها البيان ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣] .

اقتضت حكمة المولى جلّ وعلا أن يجعل لكل نبي معجزة تؤكد نبوّته ، وتنبيء عن صدقه ، وتؤيد دعوته ، وتأتي تلك المعجزة من جنس ما يفاخر فيه القوم ، ويباهي به الملأ . عُرف قوم موسى بالسحر وبرعوا فيه فكانت معجزة موسى في عصاه التي تلقف ما يأفكون ، فأُلقي السحرة سُجداً . واشتهر قوم عيسى بالطب ، فكانت معجزته في أنه يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى .

أما العرب فقد كانوا أمة بلاغة وفصاحة ، وكلمةٍ وبيان ، يعشقون الكلمة المؤثرة ، ويتيهون بالعبارة الخلابة ، وينقادون للبيان الناصع ، ويدينون للأسلوب الماتع ، تقع الكلمة الجميلة منهم موقعاً عظيماً ، وتؤثر العبارة المشرقة فيهم تأثيراً بليغاً . الشعر ديوانهم ، والخطابة ميدانهم ، والفصاحة عنوانهم ، والبلاغة بستانهم ، فجاءت معجزة النبي ﷺ من جنس ما يفاخرون به ويتحدون فيه . فَبُهِروا بعظمته ، وأيقنوا

بجلالته ، وأذعنوا لفصاحته، وتحداهم الله جل وعلا أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة من سوره ، أو بعشر آيات مثله ﴿ **وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [يونس : ٣٨] .

فهو المعجزة الخالدة ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والعصمة لمن تمسك به ، والنجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فَيُتَّقَى ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّم ، ولا تنقضي عجائبُه ، ولا يَخْلَق من كثرة الرد . من قرأه أُجر ، ومن اتَّبعه هُدي ، ومن تدبره فَقه ، ومن حكم به عدل ومن قال به صدق، ومن نطق به أصاب . تحدى العظماء ، وأفحم البلغاء ، وأسكت الشعراء .

أَوْكل اللهُ إلى كل أمة أن تحفظ كتابها ، وتصون منهاجها ، قال تعالى : ﴿ **بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** ﴾ [المائدة :٤٤] .

أما كتابنا فقد تكفل الله بحفظه : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] .

فهو محفوظ بحفظ الله ، مصون برعاية الله ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢] .

حفظه الله وأعزه ، وصانه وحماه ، وشرفه وكرمه ، ورفعه وعظمه وسماه روحاً ورحمة وشفاء وهدى ونوراً وفرقاناً وبصائر . جعله متلواً لا يُمَلّ على طول التلاوة ، ومسموعاً لا تَمُجُّه الآذان ، وغَضَّاً لا يخلق على

كثرة الرد ، وعجيباً لا تنقضي عجائبه ، ومفيداً لا تنقطع فوائده ، وجَمَع الكثيرَ من معانيه في القليل من لفظه ، وتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة أو بآية من آياته . ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

جميل في لفظه ، بديع في نظمه ، عظيمٌ في سَبْكه ، الكلمة منه أو الآية إذا كانت في خطبة كانت وجهَهَا ، أو قصيدة كانت غرَّتَها ، كالياقوته التي تكون فريدة العقد ، وكالتاج على الرأس ، والبسمة على الفم . إذا وقع بين كلام وشَّحه ، وإذا ضُمِّن في نظم زَيَّنَه ، وإذا اقتُبِس لأسلوب جمّله . يشتمل على اللب ، ويسري في الحس ، وينفذ في العروق ، ويمتزج بالدم ، مؤتلف غير مختلف ، منتظم غير متفرق ، مترابط غير متفكك ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً** ﴾ .
[النساء : ٨٢]

حَسَنٌ في السمع ، سهل على اللسان ، قريب من الفهم ، سريع إلى القلب . له من التمكن في النفوس والوقع في القلوب ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع ويؤيس ، ويضحك ويبكي ، ويحزن ويفرح ، ويشجي ويطرب ، ويهز العواطف ، ويستميل نحوه الأسماع . له مسالك في النفوس لطيفة ، ومداخل إلى القلوب دقيقة . أسلوب بهيج ، ونظمٌ أنيق ، ومعرض رشيق ، غير ثقيل على الأسماع ، ولا صعب على الأفهام . ممتلىءٌ ماءً ونضارة ، ولطفاً وغضارة ، يسري في القلوب كما يسري السرور ، ويمر إلى النفوس كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ،

ويزخر كما يزخر البحر، ويَعْذُب كما يعذب النهر الزلال . أعذب من العذب ، وأحلى من الشهد ، كالروح في البدن ، والنور في الأفق ، والغيثِ في الفاقة ، والضياء في الظلمة .

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

سَمْتٌ شريف ، ومَرقَبٌ منيف ، ومعنى لطيف ، له حلاوة وعليه طلاوة . يبهر ذوي النهى ، وأرباب الحجا بما فيه من حكمة وأحكام ، واحتجاج وتقرير ، واستشهاد وتقريع ، وإعذار وإنذار ، وتبشير وتحذير ، وتنبيه وتلويح ، وإشارة وتصريح ، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة ، وأوامر صادعة ، وقصص مفيدة ، وثناءٍ على الله ، وإخبار عن الغيب ، وحديث عن المستقبل ، ونواهٍ عن القبائح ، وزواجر عن الفواحش ، وإباحةٍ للطيبات ، وتحريم للخبائث .

استضاء العالم ببركة أنواره ، وأشرقت الآفاق بنور أضوائه ، أقبلت عليه القرون المتتابعة تغرف من بحره الذي لا ينقص ، وترتوي من معينه الذي لا ينضب .

أُنزل إلى أُمَّة لا ذكر لها ولا وزن ، ولا تاريخ ولا حضارة ، ولا علم ولا معرفة ، ولا نور ولا بصيرة ، فأحياها من موات ، وأوجدها من عدم ، وأيقظها من سبات ، فإذا بها محط الأنظار ، ومثار الإعجاب ، وميدان الإكبار . قَلَبت الموازين ، وغَيَّرَت وجه الأرض، وأسعدت البشرية ، وأضاءت للإنسانية ببركة هذا الكتاب الكريم ، والنهج القويم .

وعكف علماء الأمة على هذا العلم الرباني الخالد ، والنهج الإيماني الأسمى ؛ فتأملت طائفة من الناس معاني خطابه فاستنبطوا أحكام اللغة وقواعد العربية .

وتكلم قوم في التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ ، وسموا هذا الفن أصول الفقه .

وأحكمت طائفة صحيح النظر ، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام . فأسسوا أصوله ، وفرّعوا فروعه ، وبسطوا القول في ذلك ، وسموه بالفقه .

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة ، والأمم الخالية ، فألفوا علم التاريخ والقصص .

ونظر قوم إلى بعض آياته وسوره ، وما تحتاج إليه من شرح وبيان ، وتحليل وتفسير ، فألفوا علم التفسير .

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تهز النفوس، وتحيي القلوب ، وما فيه من الوعد والوعيد ، والتحذير والتبشير ، وذكر الموت والمعاد ، والحشر والحساب، والجنة والنار ، فكانت كتب الخطب والوعظ والرقائق .

وأخذ قوم بما في آيات المواريث فألفوا علم الفرائض .

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل

والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم والبروج وغير ذلك ، فاستخرجوا منه علم المواقيت والفلك .

ونظر الأدباء والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ ، وبديع النظم ، وحسن السياق ، والتلوين في الخطاب ، واستنبطوا علم المعاني وعلم البديع .

ونظر قوم إلى ما فيه من أعداد وأرقام ، فأظهروا ما يسمى بالإعجاز العددي .

وأتى العلم الحديث فعكفت طائفة على دراسة المخترعات الحديثة، والمكتشفات الجديدة ، ورأت ما سبق إليه القرآن من نظريات علمية ، فألفوا في الإعجاز العلمي للقرآن في الطب والفلك وغيرها ، وأسلم بسبب ذلك خلق كثير .

لقد اعتنى علماء الإسلام بهذا الكتاب عناية فائقة ، فحصروا آياته ، وعدد كلماته، بل وحروفه وجَزَّؤُوه ، ورَقَّموه وجَوَّدوه ، ونقشوه في الصدور قبل السطور .

وها هي أمة الإسلام إلى اليوم بجامعاتها وكلياتها ومعاهدها ومدارسها لا تزال تنهل من معينه العذب ، وتدور في فلكه الرحب ، فقل لي بربك ماذا للعرب وللمسلمين لو لم يكن هذا البيانُ الخالد . ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

تحدث القرآن عن نفسه كثيراً ، وبدأت عشرات السور بالحديث عنه

تنويهاً بشأنه ، وتعظيماً لجلاله ، مثل قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] .

كانت هذه الآية سبباً في إسلام عالم من كبار العلماء الغربيين ، حيث يقول : إنه ما من كتاب أو مُؤلف إلا ويبتدئه مؤلفه بالاعتذار عن النقص والخلل ، والتقصير والزلل إلا القرآن فإنه من أول سورة منه وفي أول حديث عن نفسه ؛ يعلن كماله وجماله ، وأنه بعيد عن الريب ، سليم من النقص ، مصون من الخلل ، محفوظ من الزلل .

ومثل قوله تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٢] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ الٓرٰ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] .

وكذلك خُتِمَتْ عشرات السور بالحديث عن القرآن ، مثل قوله تعالى في نهاية الأعراف : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤]

وقوله تعالى في نهاية سورة إبراهيم : ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

وقوله تعالى في نهاية سورة ق : ﴿ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

وقوله في نهاية البروج : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

وقد كثر الحديث في القرآن عن القرآن الكريم في آيات تأخذ بالألباب وتهز النفوس :

قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٩٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

[الزمر : ٢٣]

انظر إلى روعة كلمة ﴿ أَحْسَنَ ﴾ وما لها من الأثر في النفس ، والموقع من القلب . فلو وضعت مكانها أي كلمة أخرى مثل : أجمل ، وأفضل وأجود ، فلن تجد لها من الأثر ما لكلمة ﴿ أَحْسَنَ ﴾ ثم انظر إلى تكرار لفظ الجلالة في هذه الآية أربع مرات ، وما له من معنى عميق ، وأثر بديع.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٨] .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : ٢١] .

انظر إلى عظمة هذا الكتاب كيف طبّق الأرض بأنواره ، وجلل الآفاق بضيائه ، ونَفَذ في العالم حكْمُه ، وقُبِل في الدنيا رَسْمُه . وأصبحت نغماته الحانية تلامس القلوب قبل الأسماع في أنحاء الدنيا وأصقاع المعمورة ، فيحيي قلوباً ميتة ، وينير عقولاً مظلمة ، ويبعث أجساداً هامدة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يدل على صدوره من الربوبية وورود عن الألوهية فهو روح لأنه يحيي الخلق ، ويبعث في النفوس الحياة ، فله فضل الأرواح في الأجساد . وهو نور لأنه يضيء للقلوب والعقول والبصائر ضياءَ الشمس في الآفاق .

دعا إلى الوحدانية في أجمل أسلوب ، وأصدق عبارة ، فقال : ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر : ٦٥] .

ويقول تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢] .

ودعا إلى التفكر في آيات الله والتأمل في مخلوقاته والنظر في

ملكوته ، وربَطَ ذلك بتوحيده جل وعلا فقال : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل : ٦٠ - ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ٩٩] .

وقال تعالى : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد : ٤] .

انظر إلى هذا الجمال الخلاب ، والروعة الفائقة ، والبيان المعجز الذي يأخذ بالألباب، ويمتلك النفوس في قوله : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ كم في ذلك من آيات العظمة ودلائل الألوهية .

وَرَدَّ شبه الملحدين في أسلوب معجز ، وبيان مفحم ، وحجة دامغة ، فقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

وقال لمنكر البعث : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٩].

وبين تعالى الأسلوب الأمثل ، والطريق الأكمل ، والنهج الأجمل في الدعوة إلى الله تعالى فقال : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وحث على الوحدة ولزوم الجماعة ، والبعد عن الفرقة فقال : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣].

وبين النهج الأسلم ، والطريق الأحكم ، والخلق الأعظم ، وجمع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب في آية واحدة فقال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠]

وبين القاعدة في الحلال والحرام في جزءٍ من آية فقال : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وأوجز ما في القرآن كلِّه في سورة الفاتحة ، فهي أم الكتاب والسبع

المثاني والقرآن العظيم .

وأوجز رسالة الإنسان في الحياة في سورة واحدة ، قال عنها الشافعي: لولم ينزل الله إلا هذه السورة على الناس لكفتهم ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر] .

وبين جل وعلا عظمته وسلطانه ، وأن كل ما في الكون تحت أمره ومشيئته في كلمتين فقال : ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ ، وأخبر عن تمام الدين وصدق الرسالة ونقاء المنهج بكلمتين اثنتين ، فقال تعالى : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً** ﴾ أى صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام .

وبين مهمة نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ [الفتح : ٩] .

وبين صفته جل وعلا وكماله وجلاله في جزء من آية فقال : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] .

ودعا إلى الجنة ونعيمها بكلمات حانية ، وعبارات مؤثرة ، وأسلوب ماتع فقال : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [محمد : ١٥] .

وحذر من النار وجحيمها ، وجهنم وأهوالها ، في أسلوب مرعب، وبيان مذهل ، وكلمات مدوية فقال تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ**

ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج : ٢١] .

هذه إشارةٌ سريعة وبيان موجز لفحوى الكتاب ، وعظمة الفرقان وروعة القرآن ، فأين نحن من هذا الذكر الحكيم ، وما موقفنا منه .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] أي يتدبرونه ويتبعونه حق اتباعه ، ويعملون به حق عمله . فهؤلاء هم المؤمنون بالقرآن حقاً، وهم أهله وخاصته صدقاً . ما أشد الحاجة إلى العودة الصادقة لهذا القرآن ، عودة بالقلوب والأفئدة ، بالأرواح والأذهان ، لا بالتلاوة باللسان فحسب . لقد غدا اهتمام كثير من الناس بالقرآن اليوم في إقامة حروفه فقط ، بل بعضهم يسجعه مبنىً ويهدمه معنى ، ويُحَفِّظ حروفه ويقف سداً منيعاً دون حدوده . فلذلك ذهبت بركة القرآن ، وغابت روحه ، وفقدت ثمرته . ولا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، أخذوا الكتاب بقوة ، وتلقوا التوجيه بهمة ، وامتثلوا الأمر بعزيمة .

لقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين الناس ، يتخلق بأخلاقه ، ويتأدب بآدابه ويمتثل أوامره ، ويجتنب نواهيه . يحيي به ليله ، ويعمر به بيته ، ويزكي به فؤاده . إن قرأه تدبر وتأمل ، ودعا واستغفر ، وبكى وخشع . وإن قُرئ عليه فاضت عيناه ، وذرفت دموعه . إن أوصى أوصى به ، وإن وعظ وعظ به ، وإن أمَّر أميراً قدم صاحب القرآن ، وإن اختار إماماً فضل حامل

القرآن ، وإن دفن أصحابه قدم صاحب القرآن وإن حاور حاور بالقرآن ، وإن جاءه متزوج ليس لديه مهر زوَّجَهُ بما معه من القرآن . وكان يتدارس القرآن مع جبريل في كل عام مرّة في شهر رمضان ، إلا آخر رمضان صامه ﷺ فقد عارض جبريل القرآن مرتين . وكان يوصي أصحابه بالقرآن والمداومة على قراءته : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » [صحيح الجامع : ١١٦٥] .

ويقول ﷺ : « يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها » .

[صحيح الجامع : ٨١٢٢]

ويقول ﷺ : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » [صحيح الجامع : ٦٤٦٩].

ويقول ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » [البخاري : ١٣٢٩] .

وقد تلقى الصحابة رضوان الله عليهم وصايا نبيهم ﷺ بالقبول والترحاب ، والعمل والتطبيق . فكان لبيوتهم دوي كدوي النحل بالقرآن، عمروا به بيوتهم ، وأحيوا به ضمائرهم ، وتأدبوا بآدابه ، وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، فأنار الله بهم الدنيا ، وعمر بهم العالم ، وأنقذ بهم البشرية . أما حال المسلمين مع القرآن اليوم فهي حال مزرية ، ووضع

مبكٍ ، وأمر مؤسف ، فقد أصبح لوحات تعلق في البيوت ، أو تمائم تعلق على الصدور ، أو افتتاحات للمؤتمرات واللقاءات ، أو أشرطة تقرأ للأموات . أما العمل بما فيه ، والاهتداء بهدايته ، والسير على محجته ، فذلك ما يفتقده المسلمون اليوم إلا من رحم ربك . وصدق على كثير منهم قول معاذ بن جبل رضي الله عنه : « سَيَبْلَى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت ، يقرؤونه لا يجدون له لا شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قَصَّروا قالوا سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا سَيُغْفَر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً » .

[سنن الدرامي : ٣٢١٢]

ويقول الحسن – رحمه الله – قال تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ وما تَدَبُّرُ آياته إلا اتِّباعُه ، وأما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً ، وقد والله أسقطه كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل .

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾ . [الفرقان : ٣٠] ، وهَجْرُ القرآن يتجلى في أمور عديدة منها : هجر سماعه ، وهجر العمل به ، وهجر تحكيمه والتحاكم إليه ، وهجر تدبره وتفهمه ، وهجر الاستشفاء به أو التداوي به للأمراض الحسية والمعنوية .

لقد أخبر ﷺ أننا إن تمسكنا بكتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ فلن نضل أبداً .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]

إن سعادتنا بالقرآن ، وفلاحنا بالقرآن ، وعزنا بالقرآن ، ومجدنا بالقرآن ، وفوزنا في الدنيا والآخرة هو بالعودة إليه والتحاكم إليه ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ومتى أثمر في قلوبنا ، وأشرق في نفوسنا أشرقت بنا الأرض ، واستنارت بنا الدنيا ، وسعدت بنا البشرية .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء : ١٧٥] .

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وغمومنا ،،،،

السنة

قال ﷺ : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض » [صحيح الجامع : ٢٩٣٧] .

فكتاب الله تعالى هو الأصل الأول في التشريع، وحديثنا عن الأصل الثاني ، والجزء الباقي ، والقسم الآخر من أقسام الوحي ، وهو السنة المطهرة ، والطريقة المعصومة ، والمنهج الأحمدي ، والهدي النبوي . فهو أخو القرآن وشقيقُه ، وحميمه ورفيقُه ، فالمصدر مصدرُه والطريق طريقُه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣] .

يقول حسان بن عطية رضي الله عنه كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن .

فالسنة النبوية وحي من العظيم ، ونورٌ من الكريم ، وفيض من الحكيم تلي الكتاب في الفصاحة ، وتأتي بعده في البلاغة . نطق بها أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بياناً ، وأحسنهم خطاباً ، وأسدّهم لفظاً ، وأبينهم عبارةً ، وأصدقهم إشارةً . ألفاظه أرق من النسيم ، وأعذب من الشهد . ومعانيه إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل .

القرآن هو المعجزة القاهرة ، والآية الباهرة ، والحجة الباقية ، وقد

تكفل الله بحفظه من التبديل والتحريف ، والتغيير والتصحيف إلى قيام الساعة . والقرآن هو كلام الله جل وعلا الذي نزل به الروح الأمين على النبي ﷺ بلفظه ومعناه ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء : ١٩٤] .

ومن خصائص القرآن أنه متعبدٌ بتلاوته في الصلاة وخارجها ، وأنه لا تجوز روايته بالمعنى ، وأنه معجز بلفظه ومعناه . أما السنة فهي مُنزَّلة بالمعنى ، ولفظُها من النبي ﷺ ، ومن هنا جاز روايتها بالمعنى ، وهي ليست معجزة بألفاظها ، ولا متعبداً بتلاوتها، وهي كذلك لم تنزل على النبي ﷺ عن طريق جبريل فقط ، بل نزلت عن طريقه وعن طرق الوحي الأخرى ، من إلهام أو من وراء حجاب ، أو بإرسال مَلَك في اليقظة أو المنام ، وقد يأتي على صورته الحقيقية ، وقد يأتي متمثلاً في صورة بشر ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ** ﴾ [الشورى : ٥١].

السنة نور يتلألأ ، وبدر يضيء ، وسراج يزهر ، وعبق يفوح ، وعلم يتفجر ، وكنوز تنثر ، وصفحات تنشر . السنة مرآة النبوّة ، وروعة الرسالة ، وجمال المنهج ، وصفاء المبدأ .

السنة في معناها اللغوي تعني : الطريقة سواءً كانت حسنة أو قبيحة.

وهي في الاصطلاح : ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو

تقرير ، وهي مع الكتاب في مرتبة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بها على الأحكام الشرعية . صحيح أن القرآن أفضل منها منزلاً ، وأجل منها قدراً ، وأبعد منها مكاناً ، ولكنهما في مرتبة واحدة من حيث الحجية ، فهي وحي مثله ، لا يجوز تركها ، ولا يسوغ إهمالها ، ولا يصح مخالفتها . من عصاها فقد عصى القرآن ، ومن هجرها فقد خالف البرهان ، ومن تنكر لها فقد أسخط الديان ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الحشر : ٧] ، ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

ويقول ﷺ : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما جدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وإن ما حَرَّم رسول الله ﷺ كما حرَّم الله » [انظر صحيح الجامع : ٨١٨٦] .

ويقول ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » [صحيح الجامع : ٢٥٤٦٩] .

فالسنة مُتممةٌ للكتاب وشارحة له ، ومبينة لمُبْهَمه ، ومُفَصِّلة لمجمله ، ومؤكدة لأحكامه ، ومقيدة لمطلقه ، وموضحة لمشكله ، ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**

﴿وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

فالكتاب هو القرآن ، والحكمة هي سنة رسول الله ﷺ ، يقول الإمام أحمد – رحمه الله –: «السنة تفسر الكتاب ، وتعرف الكتاب وتبيِّنه» .

ويقول ابن عبد البر – رحمه الله – : «والبيان منه ﷺ على ضربين :

الأول : بيان المجمل في الكتاب العزيز كالصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه ﷺ للزكاة وحدّها ووقتها ، وما الذي تؤخذ منه الأموال ، وبيان مناسك الحج» .

والثاني : زيادةٌ على حكم الكتاب ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وكتحريم الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، إلى أشياء يطول ذكرها .

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للقرآن أنه مبين له ، وموضح لمراميه وآياته ، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] .

ولقد اعتنى الصحابة – رضي الله عنهم – بالسنة النبوية عناية فائقة فتلقوها بالقبول ، وامتثلوها بالتطبيق ، والتزموا الحدود ، وامتثلوا الأمر ، واجتنبوا النهي ، واقتدوا به ﷺ في كل أعماله وعباداته ومعاملاته ، سواء في حياته أو بعد مماته ، أخذوا عنه أحكام الصلاة وأركانها وهيئتها وصفتها ، عملاً بقوله : «صلوا كما رأيتموني أصلي» [رواه البخاري : ٥٩٥] وأخذوا عنه مناسك الحج وشعائره امتثالاً لأمره : «خذوا عني

مناسككم» [رواه النسائي : ٣٠١٢] .

بل بلغ من اقتدائهم أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ، ويتركون ما يترك دون أن يعلموا لذلك سبباً أو يسألوه عن علته وحكمه ، «اتخذ النبي ﷺ خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب فقال النبي ﷺ : إني اتخذت خاتماً من ذهب» ، وقال : «إني لن ألبسه أبداً» فنبذ الناس خواتيمهم» [رواه البخاري : ٦٧٥٤] .

وبينما هو يصلي بأصحابه ذات مرة إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره ، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم ، فلما قضى الصلاة قال: «ما حملكم على إلقاء نعالكم» ، قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا فقال ﷺ : «إن جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أن فيهما قذراً» [صححه الالباني في الإرواء : ٢٨٤] .

انظر إلى هذه المتابعة الصادقة ، ثم انظر إلى أحوال كثير من الناس اليوم ، تأتيهم بالحديث ، وتخبرهم بالسنة ، فيُقَطِّبون جباههم ، ويلوون أعناقهم ، وتضيق صدورهم، وتأبى قلوبهم .

ومن أعجب ما روي عن الصحابة في حرصهم على طاعة النبي ﷺ وامتثال أمره ، ما حدث من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فعن جابر قال : ولما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة قال : «اجلسوا» فسمع ذلك ابن مسعود فجلس على باب المسجد ، فرآه رسول الله ﷺ فقال: «تعال يا عبد الله بن مسعود» [رواه أبو داود:٩٢٠] فانظر كيف بادر إلى امتثال الأمر

وهو لم يدخل المسجد .

وهكذا حرص الصحابة – رضي الله عنهم – على اتباع أوامره ﷺ واجتناب نواهيه ، والأخذ بسنته ، والسير على محجته . وقد حفظوا العهد ، وصانوا الميثاق ، ومضوا على النهج بعد وفاته ﷺ ، وبلّغوا سنته ونشروا هدايته . امتثالاً لقوله ﷺ : « نضر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها ثم ذهب بها إلى من لم يسمعها ، فربَّ حامل فقه ليس بفقيه ، وربَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه » [صحيح الترغيب : ٨٥] .

وقوله ﷺ في حجة الوداع : « ألا هل بلّغت » قالوا : نعم قال : « اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع . . » .

[رواه البخاري : ١٦٢٥]

وكانوا غايةً في الصدق ، وآيةً في الأمانة ، مبرئين من الكذب ، منزهين عن العبث فهم الذين حفظوا عنه ﷺ قوله : « من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار » [صحيح الجامع : ٦٥١٩] .

وبقيت السنة سليمة من الأذى ، محفوظة من العدا ، بعيدة عن الردى لا يتجرأ حاسد للنيل من قدسيتها ، ولا يطمع منافق في تشويه جمالها ، أو العبث بكرامتها . وكيف يطمع أحد في ذلك وأبو بكر في الوجود ، وعمر على قيد الحياة . فلما أن قتل الفاروق ، وكسر باب الفتن وثلم حد الإسلام ، ودبت الفرقة ، ونشأت الصراعات ، وتطاولت الفتن ، وتسللت المحن التي بلغت ذروتها ، ووصلت غايتها بمقتل عثمان بن عفان

ﷺ بدأ الغش والدغل ، والخيانة والحقد ، والحسد والغل . وكما أوذي ﷺ في حياته ، وحورب في دعوته ، وعودي في رسالته ، وتألب عليه الخصوم ، وتكالب عليه الأعداء ، ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٣٠].

كما حدث ذلك في حياته ﷺ حدث لسنته بعد وفاته . فامتدت الأيدي الآثمة ، واشرأبت الأعناق الماكرة ، ونفثت الأنفس الخبيثة ، ونطقت الألسن الكاذبة . أملاً منها في هدم الدين ، وطمعاً في تشويه السنة ، ورغبةً في تزييف الحق ، وطمس الهدى ، وإطفاء النور .

تظافرت جهود الخصوم ، وتواطأت قلوب الفجرة من المنافقين والملحدين والزنادقة والفرق الضالة والداخلين في الإسلام على دغل ومكيدة ، وممن اتبعهم على جهالة وعمى بصيرة ، فسددوا سهامهم إلى السنة ، وأعملوا فيها سيوف باطلهم ، وخناجر بهتانهم ، ورماح أكاذيبهم، فَكَذَبُوا واخترعوا ، وزادوا ونقصوا ، ووضعوا ودسوا ، ومكروا وغدروا ، وعبثوا وفجروا . لكن ولله الحمد والمنة ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٥] . ارتدت سهامهم في نحورهم ، وعادت خناجرهم إلى صدورهم ، وصوبت رماحهم إلى قلوبهم ، لم ينالوا منالاً ، ولم يجنوا خيراً ، بل تميز الخبيث من الطيب والصالح من الطالح ، وازداد الحق ثباتاً ، والصدق رسوخا ، والنور ضياء ، والبرهان وضوحاً ، فكان الخير كل الخير في ثنايا الشر ، وكان الهدى أحسن الهدى في زوايا الأذى .

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ
طُوِيَتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاوَرَتْ
ما كان يُعرف طيبُ عَرفِ العُودِ

كانت تلك المكائد ، وهاتيك الدسائس سبباً في إيقاد نار الغيرة في قلوب المؤمنين، وتحريك الهمة في نفوس الموحدين ، وبعث الحمية في صدور المتقين . فبذلوا أوقاتهم ، وأتعبوا أجسادهم ، وكدوا أذهانهم، أسهروا ليلهم ، وأظمأوا نهارهم ، وشحذوا هممهم في دفاع صادق ، ونضال مخلص ، وجهاد مفلح . وأتوا بعلم لم يُعرف في الأولين ولا في الآخرين ، ولم يكن له مثيل في العالمين وهو علم مصطلح الحديث . فقعَّدوا القواعد العلمية التي لا نظير لها في أمم الأرض ، فصانوا بها السنة وحفظوا بها الملة ، وحرسوا بها الشريعة .

وأهم الخطوات التي قاموا بها لحفظ السنة :

أولاً : دراسة إسناد الأحاديث ، فلا يقبلون منها إلا ما عرفوا طريقها ورواتها ، واطمأنوا إلى ثقتهم وعدالتهم .

يقول ابن سيرين فيما يرويه عنه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سمُّوا لنا رجالكم ، فيُنْظَر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم» .

ويقول ابن المبارك : «الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» .

ثانياً : التوثق من الأحاديث وذلك بالرجوع إلى الصحابة والتابعين وأئمة هذا الفن. وكان الصحابة أنفسهم يرحل الواحد منهم شهراً كاملاً من أجل حديث واحد كما فعل جابر بن عبد الله حينما رحل إلى الشام ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى مصر من أجل حديث واحد ، فلما سمعه عاد إلى المدينة من فوره ولم يحلّ رحله .

ويقول سعيد بن المسيب – رحمه الله – : «إن كنت لأسير في طلب الحديث الواحد مسيرة الليالي والأيام» .

وخرج الشعبي –رحمه الله– من الكوفة إلى مكة المكرمة في طلب ثلاثة أحاديث.

وهذا إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – يقول: «رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور ، والشامات ، والموصل ، والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعاً وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطراف ، ثم عدت إلى بغداد» .

وإذا أردت أن تعرف من ذلك المزيد ، وتقع على العجب العجاب من أخبار السلف – رحمهم الله – ، فاسمع إلى أحدهم وهو الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي المتوفى عام ٢٢٧ هـ يقول : «وأما ما كنت سرت أنا

من الكوفة إلى بغداد فمالا يحصى ، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجت من البحرين قرب مدينة سلا ، وذلك في المغرب الأقصى إلى مصر ماشياً ، ومن مصر إلى الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرطوس ، ثم رجعت من طرطوس إلى حمص ، ومن حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد ، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة كل ذلك ماشياً» .

ثالثاً : أما الأمر الثالث من الأمور التي اتخذها السلف لحفظ السنة وتنقيتها فهو نقد الرواة ، وبيان حالهم من صدق أو كذب ، وهذا باب عظيم ، وصل منه العلماء إلى تمييز الصحيح من المكذوب، والقوي من الضعيف ، وقد أبلوا فيه بلاءً حسناً ، وتتبعوا الرواة ، ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم ، وما خفي من أمرهم وما ظهر ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا منعهم من تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج .

قيل ليحيى القطان العالم الحافظ الجهبذ : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة ، فقال : «لأن يكون هؤلاء خصمي أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول : لِمَ لَمْ تَذُبَّ الكذب عن حديثي» .

وقال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : «المقبول الثقة الضابط لما

يرويه ، وهو المسلم العاقل البالغ ، سالماً من أسباب الفسق ، وخوارم المروءة وأن يكون مع ذلك متيقظاً غير مغفل ، حافظاً إن حدّث من حفظه ، فاهماً إن حدّث عن المعنى ، فإن اختل شرط مما ذكرنا رُدَّت روايته» .

بهذه الطريقة العظيمة ، والقوانين البديعة ، والقواعد الدقيقة ، حفظ السلف سنة المصطفى ﷺ ، وصانوا أحاديثه ، وقد بلغت علوم الحديث والقواعد التي وضعها العلماء لحفظه ما يربو على الستين علْماً . فبقيت السنة عالية الذرا ، ناصعة الجبين ، واضحة المحجة ، ظاهرة الحجة ، داعية إلى الحق والهدى ، نابذة للضلالة والعمى .

وقد قيّض الله علماء أطهاراً ، ونجباء أبراراً ، محقوا الدسائس ، وأتوا بالنفائس ، أرهقوا الأجساد والأرواح ، فجاءوا لنا بمختار الصحاح .

يقول الإمام مالك – رحمه الله – : «كتبت بيدي مائة ألف حديث» .

وأوسع المسانيد التي ضمت الأحاديث في القرن الثالث الهجري مسند الإمام أحمد ، ومسند بقي بن مخلد ، وقد ضم مسند الإمام أحمد أربعين ألف حديث ، وقد قال عن مسنده : «هذا كتاب جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألفا» ، ويقال : إن الإمام أحمد كان يحفظ ألف ألف حديث . ويضم مسند بقي بن مخلد حوالي ثلاثين ألف وتسعمائة وسبعين حديثاً .

وهذا الإمام البخاري – رحمه الله – صاحبُ أعظمِ وأصدق كتاب

بعد كتاب الله تعالى ، أودع في كتابه ما يربو على سبعة آلاف حديث بالمكرر، يقول عن كتابه : «أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث ، وما وضعت في كتابي حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، ويقول : كتبت عن ألف شيخ ، ورويت عن كل واحدٍ منهم عشرة آلاف وأكثر ، وما عندي حديث إلا أذكر إسناده» .

ونُقل عن الإمام مسلم أنه صنف صحيحه من ثلاثمائة ألف حديث وهو يضم اثني عشر ألف حديث .

وقال الإمام أحمد عن أبي زرعة – رحمه الله – : «هذا الفتى قد حفظ ستمائة ألف حديث» .

وهذا الإمام أبو داود – رحمه الله – الذي تحوي سننه حوالي خمسة آلاف ومائتين وأربعةً وسبعين حديثاً ، يقول : «جمعت كتاب السنن من ستمائة ألف حديث» .

وهذا يحيى بن معين – رحمه الله – يقول : «كتبت بيدي ألف ألف حديث» ، وهو الذي يقول : «لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه» .

وهذا علي بن عاصم مسند العراق ، أعطاه أبوه وهو شاب صغير مائة ألف درهم وقال له : اذهب ولا أرى لك وجهاً إلا بمائة ألف حديث ، فذهب وعاد إلى والده بمائة ألف حديث يحفظها عن ظهر قلب . فانظر كيف كانوا يربون أبناءهم ، وبماذا يعمرون أوقاتهم ؟!!

وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حمل العلم عن أربعة آلاف شيخ .

إلى غير ذلك من الهمم العالية ، والعزائم المتوقدة ، والجهود الجبارة التي بذلت لحفظ السنة ، وصيانة الملة ، ورعاية المنهج . فأولئك أركان الشريعة ، وأمناء الله من خليقته ، والواسطة بين النبي وأمته ، والمجتهدون في حفظ ملته . أنوارهم زاهره ، وفضائلهم سائره، وآياتهم باهره ، ومذاهبهم ظاهره ، وحججهم قاهره . لم يعرجوا على الأهواء ، ولم يلتفتوا إلى الآراء فجزاهم الله أفضل وأكمل وأعظم الجزاء .

وبعد الصراعات الدامية ، والمعارك الضارية ، التي أرادت أن تستأصل شأفة السنة وتطمس أنوارها ، وتشوه أخبارها ، وتهتك أستارها ، كتب الله النصر للسنة وأربابها ، والحنيفية وحراسها ، فخرجت منتصرة مظفرة محفوظة مطهرة ، مضبوطة مقرّرة ، مكتوبة مدونة ، مهابة مكرمة ، بيضاء نقية ، ناصعة جلية ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا يتيه عنها إلا مخذول ، من أخذ بها نجا ، ومن تركها خسر .

يقول ﷺ : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » ، قيل : ومن يأبى يا رسول الله؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » .

[رواه البخاري : ١٦٢]

فيا خسارة من ترك مَحجّته ، وخالف سنته ، وهجر طريقته ، وتنكب ملته ، ولا صلاح لهذه الأمة إلا بالعودة الصادقة إلى الكتاب والسنة قراءة

وتدبراً وتطبيقاً وعملاً . وأي أرض لم تشرق عليها أنوار الرسالة ، وشمس الهداية ، فهي أرض ملعونة . وأي قلب لم يستنر بضياء الكتاب والسنة ، فهو قلب مظلم . وإن ما تعيشه هذه البلاد من نعم ، وما ترفل فيه من فضل ، وتحظى به من أمن ، لهو ثمرة تحكيم الكتاب ، والعمل بالسنة ، والتطبيق للشريعة . نسأل الله تعالى أن يزيدها هدى وصلاحاً ، ونوراً وفلاحاً ، وتوفيقاً ونجاحاً، وأن يوفق ولاة أمورها ويرزقهم البطانة الصالحة ، والصحبة الناصحة ، وينفع بهم البلاد والعباد .. إنه سميع مجيب ،،،

جوامع الكلم

تحدثنا فيما سبق عن السنة النبوية من حيث مكانتها وعظمتها وحفظ الله لها ، وجهود العلماء في ذلك ، وحجيتها ، ووجوب التحاكم إليها .

وحديثنا هنا هو عن البلاغة النبوية ، والفصاحة المحمدية . عن البيان القويم ، والهدي الكريم في الدعوة والتعليم .

لقد كان ﷺ مؤيداً بالقرآن ، مصدقاً بالبرهان ، مدعماً بالمعجزات مصحوباً بالبينات ، ومع ذلك لم يغفل مهمة اللسان ، أو يهمل جانب البيان . لقد كان خلقه القرآن ، حتى في علمه وتعليمه ، وبلاغته وفصاحته ، وحسن بيانه ، وروعة برهانه ، فجاء كلامه في المرتبة الثانية بعد القران الكريم . فهو أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بيانا، وأحسنهم خطابا ، وأسدهم لفظا ، وأبينهم عبارة ، وأوضحهم إشارة . بيان معجز ، وأسلوب مشرق ، ألفاظه أرق من النسيم ، وأحلى من الشهد ، وأعذب من الماء الزلال ، ومعانيه إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، ومنتهى الفهم ، ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ ، حديث قلَّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه . ألقى الله له القبول ، وشرح له

الصدور ، وأبهج به القلوب . جمع بين المهابة والحلاوة ، والجزالة والطلاوة، وبين حسن الإفهام . وقلة عدد الكلام .

تقول عائشة – رضي الله عنها – : «ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصلٌ ، يحفظه من جلس إليه» [رواه البخاري : ٣٦٣٩] .

ولم يسمع الناس بعد القرآن بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .

ولا غرو في ذلك فقد نشأ في أفصح القبائل ، وأخلصها منطقاً ، وأعذبها بياناً . فكان مولده في بني هاشم ، وأخواله من بني زهرة ، ورضاعته في بني سعد ، ومنشؤه في قريش.

ويقول ﷺ : «أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لي الكلام اختصاراً»، وفي رواية : «أعطيت فواتح الكلم ، وجوامعَه ، وخواتمه» [صحيح الجامع : ١٠٥٨] .

ومعنى ذلك أنه ﷺ أعطي البلاغة والفصاحة والتوصل إلى غوامض المعاني ، وبدائع الحكم ، ومحاسن الألفاظ والعبارات ، وواسع المعاني الجليلة الشاملة ، بلفظ موجز لطيف جامع ، لا تعقيد فيه ولا التواء ، ولا لبس ولا غموض .

وقد آتاه الله الحكمة البالغة ، والحجة البينة ، والعلوم الجمة ، وهو أميّ من أمة أمية لم يقرأ كتاباً ، ولا درس علماً ، ولا صحب عالماً ولا معلماً ، ولكنه جاء بما بهر العقول ، وأذهل الفطن ، من بيان متقن ، وكلام محكم ، ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ١١٣] .

كان ﷺ بَيِّنَ التعليم إذا علَّم ، واضح الجواب إذا سئل ، ظاهر الحجة إذا جودل ، لا يتكلم في غير حاجة . دائم الفكرة ، طويل السكت ، أجمل الناس صمتاً ، وأحسنهم سمتاً ، وأوجزهم كلاماً ، لا يظهر في كلامه هجنة التكلف ، ولا يتخلله فيهقة التعسف إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير .

لقد كان ﷺ يتفنن في الأسلوب ، ويتأنق في العبارة ، وينوع في الأداء ، ويجدد في العرض ، ويلون الحديث ألواناً كثيرة : فتارة يقدم ما عنده في ثوب من التشبيه قشيب ، وتارة في نوع من التمثيل بديع وتارة عن طريق السؤال والاستفهام ، وتارة عن طريق القصة المؤثرة ، والحادثة الموحية ، وتارة عن طريق الوسيلة التعليمية ، وتارة عن طريق اغتنام الفرصة ، واقتناص الحادثة ، وتارة عن طريق المحاورة والمناقشة الهادفة الهادئة ، فما ترك ﷺ من أسلوب إلا سلكه ، ولا لون من ألوان الكلام إلا استعمله ، ولا طريقة من طرائق الحديث إلا أخذ بها .

وسنعرض عرضاً سريعاً لبعض أساليبه البليغة ، وطرائقه البديعة ، من غير زيادة في الشرح ، أو توسع في التحليل ، أو توضيح لأسرار الجمال ،

ومواطن الإبداع ، لضيق الوقت، ومراعاة المقام ، وإنما هي رحلة ماتعة ، وجولة رائعة في بستان السنة ، نقطف من ثمرها ، ونشتم من عبقها ، ونمتع القلوب والأفئدة بروعة المنظر ، وجلال المخبر.

من أساليبه ﷺ : التشبيه .

وهو عقد المماثلة بين أمرين ، وهو يكسو المعاني أبهة ، ويكسبها منقبة ، وإذا جاء في كلام كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، سريعاً إلى الحفظ ، قريباً من الفهم ، حبيباً إلى النفس ، وقد كثر التشبيه في كلامه ﷺ ، وأتى منه بغرائب ، وجاء منه بعجائب ، ومن ذلك قوله ﷺ : « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » [مسلم : ٢٥٤٧] ، وقول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » [صحيح الجامع : ٦٦٥٤] .

ومن أساليبه ﷺ : التمثيل .

وهو نوع من أنواع التشبيه ، وتشبيه التمثيل في الحديث النبوي في قمة الجمال ، وغاية الجلال ، ينشر على المعنى تمام حلته ، ويظهر المكنون من حسنه وزينته . يأتيك المعنى في تمثيل رفيع ، وتصوير بديع . وكثيراً ما كان ﷺ يقرب الأمور المعنوية والمعاني العقلية في صور محسوسة ، وأشياء ملموسة ، لترسخ في الذهن ، وتنقدح في الفؤاد ، وتسكن في الضمير . وهو يعطيك فائدة علمية ، ومتعة فنية بما فيه من صورة ، وما يحويه من مثل . فإذا أراد ﷺ أن يبين رحمته بالناس ، ورفقه بهم ،

وحرصه عليهم ، ويبين حاله معهم ، وموقفه منهم ، قدم ذلك عن طريق هذا التمثيل الجميل ، وصحبك في رحلة برية ماتعة تسرح فيها بخيالك وتنتقل بوجدانك ، ثم تعود منها بمعنى جليل ، وكسب جميل ، فأصغ سمعك ، ومتع فؤادك ، وضع يدك على قلبك وأنت تستمع إلى هذا البيان الخلاب ، والأسلوب الجذاب :

يقول ﷺ : « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش والهوام وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن بيده ، وهن يغلبنه فيقتحمن في النار ، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم هلم عن النار ، هلم عن النار ، وأنتم تفلتون من يدي فتقتحمون فيها » [انظر صحيح الجامع : ٥٨٥٨] .

ثم إذا ما أراد أن يبين أهمية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ووجوب الأخذ على يد السفية ، والوقوف في وجه أصحاب الضلال وأرباب الفساد ، وتحكيم الشرع ، وإقامة الحدود ، صحبك في رحلة بحرية تسرح فيها بفكرك وقلبك ، وتركب البحر ، وتصارع الأمواج وتمتطي السفن ، فيقول ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فقال الذين في أسفلها : لو أنا خرقنا في نصيبنا هذا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن هم تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن هم أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » [صحيح الجامع : ٥٨٣٢] .

وينتقل ﷺ من البحر إلى النهر ، فالصلاة وهي عمود الدين ، وروح

الإسلام ، ولباب الأعمال ، وهي الماء الزلال ، والمشرب العذب والمورد النقي ، يبين ﷺ أهميتها، ويشرح مكانتها في هذا التمثل البهيج ، فيقول ﷺ : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء؟! » ، قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » [صححه الألباني في الإرواء : ١٥] .

ومن أساليبه ﷺ : الاستفهام والمساءلة .

ولهذا الأسلوب أثر عظيم في تحريك الذهن ، وشد الانتباه ، وإثارة المشاعر ، حيث يتعلق قلب السائل ، وتشرئب نفسه ، ويتطلع فؤاده إلى معرفة الجواب ، فإذا ما سمعه ارتسم في فؤاده ، وانغرس في ضميره ، ومن ذلك قوله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخيرٍ لكم من إعطاء الذهب والوَرِق ، ومن أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » قالوا : وما ذاك يا رسول الله؟ ، قال : « ذكر الله » [صحيح ابن ماجة : ٣٠٧٢] .

ومن ذلك ، قوله ﷺ : « أتدرون من المفلس؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، – وهذا هو المقياس المادي ، والدليل الأرضي عند الناس أن المفلس والمحروم هو الذي ليس لديه المال ، ولا يمتلك الضياع ، ولا يحوز القصور والدور ، فأراد ﷺ أن يقلب هذا التصور ، وأن يعلم أصحابه أن المقاييس في الحكم على الناس ليست بما يملكون من حطام ، بل بما لديهم من طاعة الملك العلام – فقال : « إن المفلس من أمتي

من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار» .

[انظر صحيح الجامع : ٨٧]

ومن أساليبه ﷺ إجابة السائل على عكس سؤاله .

سأله رجل ، يا رسول الله : ما يلبس المحرم ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يلبس القميص والعمامة ، ولا السراويل والبرنس ، ولا ثوباً مسّه الورس أو الزعفران ، فإن لم يجد النعلين ليلبس الخفين ، وليقطعها حتى يكونا تحت الكعبين» [انظر صحيح الجامع : ٧٧٧٧] فهو لم يجب السائل عن الذي يجوز لبسه للمحرم لأن ذلك كثيرٌ جداً ، ويطول بيانه ، فأجابه عن الذي لا يلبس ، وما عداه يجوز لبسه .

ومن أساليبه ﷺ : اغتنام الفرصة .

في معركة من المعارك جاءت امرأة تبحث عن طفل لها فقدته ، فأقبلت والعاطفة تعمر فؤادها ، والهلع يكاد يخلع قلبها ، وثدياها يسيلان بالحليب ، وهي تسعى بين الناس تبحث عن طفلها ، إذ وجدته فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته في غاية من الشوق ، ونهاية من الحنان وفيض من الرحمة ، والصحابة ينظرون إليها ، ويتعجبون من هذه الرحمة الغامرة ، والحنان المتدفق ، والرسول ﷺ يرمق الموقف عن كثب ، ويراقبه

بدقة ، فلما رأى الانفعال بالموقف ، والتأثر بالحدث ، استغل هذه الفرصة ليزرع في قلوب أصحابه معنى هائلاً ، وحقيقة ضخمة لا تكاد الكلمات تؤديها ، ولا العبارات تصورها ، لجمالها وجلالها ، وروعتها وبهائها ، فقال لهم النبي ﷺ : « أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟ » ، قالوا : لا يارسول الله ، وهي تستطيع ذلك ، فقال : « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » [انظر البخاري : ٥٩٩٩] .

وأهديت إليه ﷺ جبة من حرير فجعل الصحابة يلمسونها ويعجبون من رقتها ولينها، فأراد ﷺ أن يستغل هذا الحدث ، ويغتنم هذه الفرصة ليرتفع بفكر أصحابه ، ويرتقي باهتمامهم ، ويصرف نظرتهم عن الدنيا بشتى مباهجها إلى الآخرة ، حيث النعيم المقيم ، والأنس المستديم ، فقال لهم : « أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ منها وألين » [مسلم : ٢٤٦٨] .

ومن أساليبه ﷺ : الوسيلة التعليمية .

لقد سبق ﷺ أصحاب التربية ، وأرباب التعليم الذين يقولون بأهمية الوسيلة التعليمية ، لتثبيت الدرس ، وتأكيد المعلومة ، صحيح أنه ﷺ لم يكن يمتلك الفلين ، ولا الألوان السحرية أو المائية أو الخشبية ، ولكنه كان يمتلك إصبعاً سحرية يخط بها على الثرى فيرسم بها لوحة ترتسم في القلوب ، فلا يخرج منها أبداً .

يقول جابر رضي الله عنه : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فخط بيده في الأرض

خطاً هكذا أمامه ، فقال : « هذا سبيل الله عز وجل » وخط خطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال : « هذه سبل الشيطان » ثم وضع يده في الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] » [صحيح ابن ماجة : ١١] .

ومن أساليبه ﷺ التعليم بالقصة .

فسرد القصص ، وذكر الأخبار ، وعرض الحوادث ، له في النفوس أثر بين ، ولقد استخدم ﷺ أسلوب القصص لزرع كثير من المعاني في نفوس أصحابه ، سواء من ذلك ما كان تعليماً ، أو ترغيباً ، أو ترهيباً . . أو غير ذلك ، وذلك كثير جداً في أحاديثه ﷺ ، ومن هذا النوع قوله ﷺ : « بينما كلب يطيف بِرَكيّةٍ قد كاد يقتله العطش ؛ إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوقها ، فاستقت له به فسقته إياه ، فغفر لها به » [الصحيحة : ٣٠] .

ومن أساليبه ﷺ السجع غير المتكلَّف ، مثل قوله : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » [صحيح الجامع : ٧٨٦٥] .

وأساليبه ﷺ كثيرة جداً ، ومنها التدرج والإيجاز ، والمداعبة والتأكيد بالقسم ، والتأكيد بالتكرار ، والتأكيد بتغيير الهيئة ، واختلاف الأجوبة باختلاف حال السائلين ، إلى غير ذلك مما يربو على الحصر ،

ويزيد عن الوصف .

لقد كان ﷺ آية في البلاغة ، رائداً في الفصاحة ، سيداً في البيان . يمتلك زمام اللغة ، ويتصرف في الكلام كيف يشاء ، من غير خلل أو زلل ، أو تقصير أو خطل ، فسبحان القائل : ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الجمعة:٢] فهو المعلم الأجل ، والمربي الأكمل ، والقائد الأمثل . هو الذي ارتوت من معينه أمم كثيرة ، وتخرج على يديه ملايين مملينة ، وشعوب مختلفة .

لفظ ناصع ، ولسان صادق ، ومنطق عذب لا يعتريه لبس ، ولا يتخلله نقص ، أحاديثه آلاف مؤلفة ، ومع ذلك أوجز الدين كله في ثلاثة أحاديث .

قال الإمام أحمد : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : «الأعمال بالنيات» ، «ومن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» ، وحديث : «الحلال بين والحرام بين» .

ويقول أبو داود – رحمه الله – : كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب ، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله ﷺ : «الأعمال بالنيات ، والثاني قوله ﷺ : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ، والثالث قوله ﷺ : «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضى

لنفسه» ، والرابع قوله ﷺ : «الحلال بين والحرام بين» [انظر شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد] .

ويوجز ﷺ حقيقة البر والإثم في كلمات جامعة ماتعة ، فيقول ﷺ : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» [صحيح الجامع : ٢٨٨٠] .

ويغلق الباب في وجه كل مبتدع أو صاحب هوى ، فيقول ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» [متفق عليه] ، ويقول : «كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» [انظر خطبة الحاجة للألباني] .

ويحدد القاعدة الكبرى في الحلال والحرام ، فيقول ﷺ : «إنَّ الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات» [متفق عليه] .

ويبين الموقف من الأمر والنهي ، فيقول ﷺ : «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم» [صحيح الجامع : ٥٨١٠].

ويعرف الفرقة الناجية ، والفئة الفائزة فيقول ﷺ : «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي» [انظر شرح الطحاوية] .

ويشرح الموقف من الدعاوى والشكاوى ، فيقول ﷺ : «البينة على المدعي واليمين على من أنكر» [صحيح الجامع : ٢٨٩٧] .

ويضع الميزان الأقوم للحكم على الناس ، فيقول ﷺ : «ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى» [المسند: ٥/ ٤١١].

ويضيف إلى اللغة العربية كماً هائلاً من الألفاظ والكلمات والأمثال ، ومنها ما لم يعرف قبله ، مثل قوله ﷺ : « مات حتف أنفه » [الحاكم في المستدرك ٢/٨٨] ، وقوله ﷺ : « هذا حين حمي الوطيس » [مسلم : ١٧٧٥].

ويسلك أسلوب الترغيب ، فيصف الجنة وصفاً رائعاً ، ويعلق بها القلوب ، ويربط بها الأفئدة ، ويتيم بها العشاق ، فيقول ﷺ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن » [انظر صحيح الجامع : ٢١٨٢] .

ويعمد إلى الترهيب فيخلع القلوب ، ويهز النفوس ، ويلهب الأفئدة فيقول ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » [صحيح الجامع : ٨٠٠١] .

ويدعو إلى الوحدة ، ويأمر بالترابط ، و يحث على التآخي ، ويشرح موقف المسلم من المسلم ، فيقول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » [صحيح الجامع : ٥٨٤٩] .

ويرسخ عقيدة التوحيد ، ويناقش من في قلبه شك أو تعترضه شبهة فيقول ﷺ : « كم تعبد يا حصين بن عبيد » ، قال : سبعة ، ستة في

الأرض ، وواحد في السماء ، قال : «من لرغبك ورهبك» ، قال : الذي في السماء ، قال : «اترك التي في الأرض واعبد الذي في السماء» [انظر المعجم الكبير للطبراني : ٣٩٦] .

ويستل أمراض النفوس ، ودخائل الباطل ، ونزغات الشيطان من النفوس بالمجادلة الحسنة ، والنقاش العقلي ، والحكمة الآسرة ، فينقلب العاصي عابدا ، والمسيء محسناً، والمفرط مواظباً .

جاءه فتىً شاب ، فقال : يا رسول الله : ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه ، فزجروه ، وقالوا : مه مه! فقال ﷺ : «ادنُ» ، فدنا منه قريباً ، فجلس ، فقال ﷺ له : «أتحبه لأمك» ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال ﷺ : «أفتحبه لابنتك» ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» ، قال : «أفتحبه لأختك؟» ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» ، قال : «أفتحبه لعمتك؟» ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال : «ولا الناس يحبونه لعماتهم» ، قال : «أفتحبه لخالتك» ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» ، ثم وضع ﷺ يده عليه ، وقال : «اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه» ، فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء . [رواه احمد] .

هذه جولة سريعة في رياض السنة النضرة ، وإبحارة قصيرة في بحر

البلاغة الزاخر ، رأينا فيها البيان في أجمل ثيابه ، والإبداع في أحسن مظاهره ، وقصدنا من ذلك الإمتاع والإقناع .

الإمتاع بتأمل هذه الفنون الآسرة ، والأقوال الساحرة ، والإقناع لكل من سلك سبيل التعليم ، وارتضى ميدان الإرشاد ، وامتطى سفينة الدعوة ، بأنه يجب الاقتداء بهديه ﷺ ، والسير على محجته والامتثال لطريقته ، فنرتقي بأساليبنا ، ونجدد في تعليمنا ، ونلون في عطائنا ، وننوع في توجيهنا ، فالدعوة والتعليم سنة كريمة ، وأمانة عظيمة ، ومن ارتضى حملها وجب عليه أن يقوم بحقها ، ويتألق في بذلها ، ويتأنق في عرضها .

ولنعلم أن ذلك كلَّه لا يغني عن المرء شيئاً إن لم يكن قبل ذلك كله داعية بسلوكه وتعامله وأخلاقه وشمائله ، ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت : ٣٣] .

ولم يكن بيانه ﷺ مجرد عبارات براقة ، وكلمات رنانة ، ومواعظ مدبجة ، وخطب مجلجلة ، ليس لها رصيد من الواقع ، ولا تصديق من الفعل ، بل كان أول الممتثلين لما يقول ، وأسرع العاملين بما يأمر ، وأصدق المنتهين عما ينهى ، أتقى الناس لله ، وأخشاهم له وأقربهم منه .

إن أهل الباطل ، وأرباب الضلال قد سبقوا في تقديم باطلهم ، وتزيين ضلالهم ، فما تركوا سبيلاً إلا سلكوه ، ولا مجالاً إلا امتطوه ولا باباً إلا طرقوه ، ولا ميداناً إلا استغلوه ، وتفننوا في عرض بضاعتهم بكل سبيل ،

سواء مقروءةً أو مسموعةً أو مرئيةً .

والحق واحد لا يتعدد ولكنه لا بد له من رجال يحملونه ، وأفذاذ يدعمونه ،وعظماء يعرضونه ، وأنصار ينصرونه . يقدمونه في ثوب جميل ، ولونٍ بديع ، وبصيرة نافذة ، وحكمةٍ بالغة ، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

البدعـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

حديثنا اليوم عن هذا النص النبوي الرائع ، والكلام المحمدي الماتع عن هذه الكلمات الجامعة المانعة ، والعبارات الصادقة الناصعة ،

كان ﷺ يكررها في خطبه ، ويرددها في مواعظه . ولم يجعلها مقدمة لخطبه ، وتمهيداً لموعظة إلا لأمر هام ، وهدف عظيم ، وقصد بليغ ، ذلك هو قوله ﷺ :

«إن أصدقَ الحديث كتابُ الله ، وأحسنَ الهدي هديُ محمد ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكلَّ محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار» .

هذا الحديث ثورة على البدعة ، وبركان في وجه المبتدعة ، إنه سيف باتر يجتث رؤوس البدع ، ويختطف أعناق الضلال ، ويطيح بهامات المبتدعة ، إنه نورٌ كاشف يبدد ظلمات البدعة ، وسيلٌ عارم يقتل قلاع الضلالة ، ويدمِّر كل باطل بإذن ربه ، وينسف جبال البدع نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا .

أصدق الحديث كتاب الله ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ [النساء:٨٧] ، وهذا الكتاب الصادق هو الذي يقول : ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣] وهو الذي يقول : ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل:٨٩] ، وهو الذي يقول : ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر : ٧] .

وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ فلا هدي أحسن من هديه ، ولا شرع أكمل من شرعه ، ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾

شرعه فقد كفر ، ولا يؤمن إنسان حتى يرضى بنهجه ، ويُسَلِّمَ لحكمه ، ويمتثل أمره ، ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

وشر الأمور محدثاتها ... الشرور كثيرة ، والآفات متعددة ، والمخالفات متنوعة ، ولكن أشرّ الشر في أمر هذا الدين هو إحداث شيءٍ فيه ليس منه ، فذلك شرُّ الأمور ، وأدهى الشرور ، وأعظم المخاطر ، وأخوف المخاوف . وإن كل بدعة صغرت أم كبرت ، حسنت أم ساءت هي ضلالة ، والضلال وأهله في النار ، وبئس القرار ، وكلمة (كل) تدل على العموم الشامل لكل شيء ، فكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، فهذا رد مفحم ، وجواب مسكت لكل من قال إن هنالك بدعةً حسنة، فقد نسفت كلمةُ (كل) جميعَ البدع ، وأتت على عموم المحدثات ، وقطعت كل الأصوات .

قال ابن عباس رضي الله عنه : كل بدعة ضلالة ، وإن رآها الناس حسنة » .

وقال مالك – رحمه الله – : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ [المائدة : ٣] فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم دينا .

وقد يقول أناس إن هنالك بدعةً حسنة مستدلين بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال عن صلاة التراويح : « نعمت البدعة تلك » ، وهذا باطل لأن عمر قصد بالبدعة معناها اللغوي فقط، ولم يقصد بها

إحداث شيء في الدين ليس منه ، فصلاة التراويح سنة من سنن النبي ﷺ ولكنه ترك الصلاة بها جماعة في المسجد خشية أن تفرض على أصحابه فأصبح الناس يصلون فرادى أو جماعات متفرقة ، فجمعهم عمر على إمام واحد ، ثم إن الرسول ﷺ لا يُعَارض قوله بقول أحد كائناً من كان ، فإذا قال كل بدعة ضلالة فليس هنالك بدعةٌ حسنة.

وقد يستدل أناس بقوله ﷺ : « من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده .. » [صحيح الجامع : ٦٣٠٥] ، وهذا المقصود به إحياء سنة كانت موجودة ، أو أن من سَنَّ سُنَّة بمعنى سنها ابتداءً بالعمل بها لا ابتداعاً وتشريعاً .

فهي سُنَّةُ ابتداء عمل مشروع ، لا ابتداع تشريع ، أو أن يفعل وسيلةً لأمر مشروع ؛ كبناء المدارس أو المساجد أو غير ذلك ..

البدعة فعل أخرق ، وعمل أحمق ، وخطر محدق ، وسبيل منكر وطريق مرذول، وجهد مردود « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [أخرجه مسلم] ، وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، وكما أن حديث « الأعمال بالنيات » ميزان للأعمال في باطنها ، فهذا الحديث ميزان للأعمال في ظاهرها ، فكل عمل ليس عليه أمر الله وأمر رسوله ﷺ فهو مردود .

البدعة محبطة للعمل ، جالبة للغضب ، مسخطة للرب ، نافية للحب ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

البدعة مضادة للشرع ، ومناهضة للسنة ، ومعارضة للمنهج ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى : ٢١] ، وهي قدح في الرسالة ، ومخالفة للأمر ، ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور : ٦٣] .

إثمها متجدد ، ووزرها مستمر ، « ومن سن في الإسلام سنةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يُنقص من أوزارهم شيء » [صحيح الجامع : ٦٣٠٥] .

يحبها الشيطان ويمقتها الرحمن ، قال ابن عباس رضي الله عنه : إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع .

إنها ظلامٌ حالك ، ومصيرٌ هالك ، « وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » ، وبئس القرار .

البدعة فيها تألٍّ على العظيم ، وتقوُّلٌ على الكريم ، اتهام لجلاله ، وتكذيب لمقاله ، وهو القائل : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] .

وفيها انتقاص لنبيه ، ورميٌ له بخيانة المنهج ، ونقصِ الرسالة ، وعدمِ البلاغ ، وهو الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

يقول أبو ذر رضي الله عنه : ما ترك النبي ﷺ طائراً يقلب جناحيه في

السماء إلا ذكر لنا منه علماً .

ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – : قال ﷺ : «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمُه لهم ، وينذرهم شرَّ ما يعلمه لهم» [رواه مسلم : ٣٤٣١] ، فالمبتدع يعلن بلسان الحال أن بدعته خيرٌ لكن قصّر ﷺ في دلالتنا عليه .

البدعة عدوٌّ لدودٌ للسنة ، وخصمٌ عنيد للحنيفية ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداءُ السنن أَعْيَتْهُم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلُّوا وأضلوا» .

فهي أفتك بالدين من السم الزعاف بالجسم ، وأخطر على السنة من الجيوش المحاربة، والجنود المقاتلة ، والسيوف المشْرَعَة .

وهي حريق يشب في الشريعة ، ويلتهم السنة ،ويشتعل في الدين ، ولكن الله يقيض لها رجالاً بواسل ، يبادرون بإخمادها ، ويسارعون لإطفائها .

يقول أبو إدريس الخولاني – رحمه الله – : «لأن أرى في المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها أحبُّ إليّ من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها» .

البدعة مفتاحٌ لباب الفوضى ، ونافذة على الضياع ، وبوابة لتهاوي المثل ، وهي أحب إلى إبليس من المعصية ، وأحسن لديه من الخطيئة ، فهي حربٌ على السنة ، وتجاوزٌ للحد ، وتعدٍّ على المشرّع .

قال ابن تيمية –رحمه الله – : «العبادات مبناها على الشرع والاتباع لا على الهوى والابتداع ، فـإن الإسـلام مبنيٌ على أصلـين أحدهما : أن نعبد اللـه وحـده لا شريك له ، والثاني : أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا نعبده بالأهواء والبدع» .

إنها هجوم مسلّح على حصون السنة ، ومعاقل الشريعة ، وقلاع المنهج . ومن أوجب الواجبات على حُفَّاظ السنة وحرّاس الشريعة ، أن يقفوا صفاً كالبنيان المرصوص في وجه أهلها ، ودحض كتائبهم ، وردّ تجاوزهم ، وأن يُعدوا لهم ما استطاعوا من قوّة الحجة ، ومن رباط العلم ، ليرهبوا به عدو الله وعدوَّ سنة نبيه ﷺ .

قال الحسن البصري – رحمه الله – : «لن يزال لله نصحاءُ في الأرض من عباده يَعْرِضون أعمالَ العباد على كتاب الله فإذا وافقوه حمدوا الله ، وإذا خالفوه عَرَفُوا بكتاب الله ضلالةَ من ضل وهدى من اهتدى فأولئك خلفاء الله» .

البدعة رجس وخور ، ودنس وخطر ، إنها نقوش سوداء على صفحات السنة البيضاء ، إنها مرض يفتك بجسم الدين السليم ، وجرب يشوه تقاسيم السنة النقية .

أيها المؤمنون . . ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الاحزاب : ٢١] .

يقول ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من

بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» [صحيح الجامع : ٢٥٤٩] .

وقد خط ﷺ لأصحابه خطاً مستقيماً ثم قال : «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام : ١٥٣] » .

[حسّنه الألباني في المشكاة : ١٦٦]

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ، قال : البدع والشبهات .

فالفوز في اتباع سنته ، والنجاة في السير على منهجه ، والفلاح في البعد عن مخالفته .

قال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى – : «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمور بعده سناً ، الأخذُ بها تصديقٌ لكتاب الله واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلُها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفها ، من اقتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً» .

يا أخي المؤمن احذر مزالقَ الشيطان ، وحبائلَ الردى ، ودسائس الهوى ، إن هذا الكلام ليس تعصباً لشخص ، ولا تحيزاً لفئة ، ولا ميلاً

لجماعة ، ولا تمذهباً لمذهب ، إنما دعوناك إلى كتاب الله – عز وجل – ، وحاكمناك إلى سنة رسول الله ﷺ ، وناجيناك بما كان عليه وحدث به أتباع رسول الله ﷺ .

احذر أن تنساق وراء العاطفة ، وتنجر بحبل التعصب المقيت ، وتهوي باتباع الهوى ، إذا جاءك مبتدع يدعوك إلى بدعته ، وضال يغريك بضلالته ، فقف منه موقف المسلم العاقل ، والمؤمن النابه ، والعاقل الرشيد ، وَجِّه هذه السهام إلى قلبه المظلم ، قل له : هل ما تدعوني إليه قد أمر الله به ، فسيقول : لا ، فقل له : هل أنت أعلم أم الله ، وهو القائل : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة : ٣] فهل ترد كلامه تعالى ، وتكذب مقاله ، ثم قل له هل ما تدعوني إليه أمر به رسول الله أو فعله أو حث عليه أو أقرّه؟ فسيقول : لا ، فقل هل أنت أعلم أم رسول الله ﷺ؟ وأين أنا من قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ ، وقوله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » [رواه مسلم : ٣٢٤٣] ، ولماذا لم يأمر به الرسول ﷺ ؟ هل جهله وعلمته أنت ؟ أم علمه فلم يبلغه فخان الرسالة ، وغش الأمة؟ ، ثم قل له : هل فعله الخلفاء الراشدون أو أمروا به ، فسيقول : لا ، فقل هل أنت أعلم أم هم؟ وأتقى لله أم هم ؟ وأين أذهب من قوله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » ، ثم قل له : هل فعله أعلام الصحابة؟ ، هل فعله التابعون لهم بإحسان؟ ، هل فعله أئمة الإسلام كالحسن البصري ، وسعيد بن المسيب ، وأبي حنيفة ، ومالك ،

والشافعي ، والأوزاعي ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم وغيرهم من أئمة الهدى ، وعظماء الملة ، وحراس الشريعة ، وحفاظ السنة ؟ فسيقول : لا ، فاصرخ في وجهه قائلاً : أأنت أعلم أم هؤلاء؟ ألا يسعني ما وسعهم ، ويكفيني ما كفاهم ، وهم أعلم الناس بالسنة ، وأكملهم حباً لرسول الله ﷺ ، وأعظمهم متابعةً لشرعه ، لو كان خيراً لسبقونا إليه .

وكيف يتقرب المرء إلى الله بعمل لم يرد في كتابه ، ولم يأمر به نبيه ولم يفعله خلفاؤه الراشدون ، ولا أعلام الصحابة ، ولا التابعون ولا أحد من علماء الشريعة في القرون المفضلة .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : « إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر » .

ويقول عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- : « خذوا من الرأي ما يُصَدِّق من كان قبلكم ، ولا تأخذوا ما هو خلاف لهم فإنهم خير منكم وأعلم » .

وقال الأوزاعي - رحمه الله - : « اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكُفَّ عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم » .

عن طريق القنوات الفضائية بدأت تنتشر كتائب البدع ، وتزحف دعوات الضلالة ، لتعم بظلامها بلداناً كثيرة ، وأوطاناً عديدة ، وإن ذوي العلم القليل ، والفهم الضئيل ، والجهل بالسنة قد ينخدعون بما

يشاهدون ، ويعجبون بما يرون ، مما تعج به كثير من البلاد الإسلامية من بدع منكرة ، واحتفالات زائفة ، ومناسبات ضالة ، تنقل عبر الشاشات في ثياب برّاقة ، ومظاهر جذابة ، وتلقى اهتماماً بالغاً ، وتشجيعاً عجيبا ويحضرها رؤساء وزعماء لا يُعرفون بدين ، ولا يذكرون بسنة ، إلا أنهم أسبق الناس في ميدان البدع ، وتشجيع المبتدعة ، وتلك سياسات لها ما وراءها ، لا تخفى على ذوي البصيرة فلا تغرنكم تلك المظاهر ، ولا تمدُنّ أعينكم إلى هاتيك البهارج ، فهي ضلال وضياع ، وبدع وخور ، وجهل وظلام ، وزيغ وحيف ، وخيبة وخذلان ، ودمار وخسران ، واعلموا أن الرضا والهدى ، والأنس والسرور ، والفوز والفلاح هو باتباع السنة ، والسير على المحجة ، والاعتصام بالشريعة ، والسير على نهج القرون المفضّلة .

ولم يبق سالماً من هذه الترهات ، وتلك الخرافات ، إلا هذه البلاد فهي معقل السنة ، وميدان الحفاظ على التوحيد ، نسأل الله تعالى أن يحفظها بحفظه ، ويرعاها برعايته ، ويبارك في ولاة أمرها من الأمراء والعلماء ويجعلهم درعاً للسنة ، وحصناً للشريعة ، وحرباً على البدعة .

ومما يذكر من البدع ما يفعله بعض الناس في شهر رجب من طقوس مختلفة ، وعبادات معينة ، وما يكون من احتفالات بليلة السابع والعشرين منه ، على أنها ليلة الإسراء والمعراج وهذا أمر منكر ، وبدعة مردودة ، فالإسراء والمعراج لم يثبت أنه في السابع والعشرين ، ثم لو ثبت فما يفعله هؤلاء الناس ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة ، ولا هو من

عمل الخلفاء الراشدين ، ولا الأئمة المهديين ، ومن العجيب أن هؤلاء المحتفلين بالإسراء والمعراج لا يحفل كثير منهم بما كان فيه ، ولا يلتزم بما أمر به الرسول ﷺ في ليلته من الحفاظ على الصلاة ، والبعد عن الغيبة والنميمة .. إلى غير ذلك ؛ فقد يحتفل بالإسراء والمعراج وهو لا يصلي مع الجماعة أو لا يصلي البتة ، فأي دين هذا، وأي عقول تلك .

أيها المؤمنون .. احذروا البدع فإنها داءٌ عضال ، ومرضٌ فتاك ، بدأ يغزو العالم ويجتاح الدنيا ؛ لضعف المسلمين ، وقلة العلماء ، وغيبة الوعي ، وكثرة الفرق الضالة ، والدعوات الزائفة ، واعلموا أن النجاة هي فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، اللهم اعصمنا من الزلل ، واحفظنا من البدع ، وجنبنا خطر الهوى .